كلمة "أدب" واطوارها

د. على عبد الهادى الخطيب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانا ، وأبلغهم حجة وبيانا ، وعلى آله وصحابته والتابعين عليهم من الله رضوانا •

أما بعد :

فان الأدب مظهر من مظاهر الحياة الانسانية ، والتى تخضع لمؤثرات عامة يتلون الأدب بأصباغها ومن أهمها الاقليم الذى يعيشون فيه ، والمناخ ، حيث انهم بدو رحل يقطعون الفيافى والقفار طلبا للمرعى والكلأ ، فحياتهم هذه أملت عليهم عادات وأخلاقا اشتهروا بها ، ومازتهم عن غيرهم ، ظهر ذلك جليا فى شعرهم ونثرهم •

ويتعين على الدارس لآداب اللغة العربية أن يتعرف على ماهية الأدب ، وموضوعه ، ليمكنه بذلك الوقوف على نتائج قرائح العرب من علوم وفنون ، والتعرف على معارفهم وتجاربهم من خلال لغتهم وآدابهم ، والأدب فى اطاره الابداعى أحد الفنون الجميلة الخمسة ، كالرسم والنحت والرقص والموسيقى وهو مثلها جميعا صناعة فنية يعبر بها التعبير المؤثر الجميل عن طوايا النفس البشرية فى كل ما تضطرب به من أشتات الرؤى • وخواطر الفكر والوجدان ، ولا يختلف عنها فى شىء من حيث الغاية التأثيرية التى يسعى اليها كل فن جميل ، بيد أن الأدب كفن جميل يتميز بمادة التعبير التى هى ألفاظ اللغة فيما هى الأشكال للنحت والزخارف والحركات والرقص والأنغام للموسيقى ، والألوان والخطوط للرسم •

ان فن الأدب تعبير جمالى بالكلام عن معاناة صاحبه الذى يجسد أحاسيسه بلغة تتصف بصفات فنية ايحائية من مفرداتها وتراكيبها ومضامينها المعنوية وأشكالها البنائية الابداعية ٠

واذا كان الفن يستلزم لبنائه الجمالى حقائق ذاتية رؤيوية لاحقائق موضوعية ، فقد وجب أن نستثنى من دائرة الفنون الجميلة كل ما هو منطبق على حقائق الوجود الموضوعى مماثل لها ، فلا يبقى للفن هكذا من محتوى سوى الحقائق الذاتية فقط ، أما الحقائق الموضوعية فهى محتوى العمل الفكرى والعلمى لا العمل الفنى وعلى هذا التمييز بين ما هو محتوى ذاتى نفسى ، وبين ما هو محتوى موضوعى عقلى ، يقوم الفارق بين الفن والعلم(١) ٠

واللغة العربية كغيرها من اللغات كائن حى ينمو ويتجدد باستمرار حسبما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية وكلمة « أدب » من الألفاظ التى اعتراها التغيير والتقلب على مر العصور ، كما أنها مرت بأطوار حسب أطوار حياة الأمة العربية وانتقالها من مرحلة البداوة الى مرحلة التمدن والحضارة الى أن غلب عليها ذلك المعنى الذى يتبادر الى أذهاننا اليوم ، ألا وهو : « الكلام الانشائى البليغ الذى يقصد به الى التأثير فى عواطف القراء والسامعين سواء أكان شعرا أم نثرا(٢) ٠

ومن الجدير بالذكر ونحن بصدد الحديث عن الأدب أن نسجل

---

(١) الفن والأدب للدكتور / ميشال عاصى طبع بمؤسسة نوفل ـ بيروت لبنان ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٠ ، ص ٧٧ ـ ٧٨ ٠

(٢) العصر الجاهلى د٠ شوقى ضيف ط الرابعة ـ دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠ ص ٧ بتصرف ٠

شيئا مما قاله الباحثون وعلماء الأدب فى مادة تلك الكلمة وأطوارها ، وتدرجها من معنى الى معنى عبر الحقب والأزمان وقد ترجح لديهم أن أول ما ورد من هذه المادة كلمة « أدب » بالفتح بمعنى دعا الى طعام و «أدب » بمعنى الدعوة الى الطعام ، و « مأدبة » وهو الطعام المدعو اليه ، و « آدب » اسم فاعل من ذلك •

قال « طرفة بن العبد البكرى » :

نحن فى المشتاة تدعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر(٣)

فكلمة « أدب » فى العصر الجاهلى لم ترد مستعملة فى المعنى الذى نستعمله الآن وهو النشاط الانسانى الذى يعبر عن صاحبه وعن الحياة تعبيرا جميلا ، بل انه لم يرد الينا من مادة « أدب » فى العصر الجاهلى الا كلمة « آداب » بمعنى الداعى الى الطعام ولم تخرج الكلمة فى هذا العصر عن هذا المعنى(٤) • واذا رجعنا الى المعاجم اللغوية فاننا لا نجد تعريفا كافيا ، ولا شرحا شافيا لهذا اللفظ،وانما اقتصر اللغويون على تعريفه بأنه « الأدب وحسن التناول » وفى مختار الصحاح : « أدب » و « أُدْب » بضم الهمزة وسكون الدال ، « أدبا » بفتحتين فهو أديب واستأدب أى تأدب(٥) • وفى المصباح المنير : أدبته أدبا أى علمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق(٦)،وفى

---

(٣) الجفلى : بفتح الجيم والفاء • الدعوة العامة الى الطعام • ينتقر: يعنى يخص جماعة دون آخرين بالدعوة • فهم يوجهون الدعوة للجميع •

(٤) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى• د• سعد ظلام ، مؤسسة دار المستشفيات ، ١٩٨٤م ص ٢٧ •

(٥) مختار الصحاح للامام محمد بن أبى بكر الرازى مادة : أدب دار الحديث ص ١٠ •

(٦) المصباح المنير لمحمد بن يعقوب الفيروزابى جـ١ ص١٤٤ مادة«أدب»

تاج العروس « الأدب » الذى يتأدب به الأديب من الناس ، سمى به لأنه يؤدب الناس الى المحامد ، وينهاهم عن المقابح وأصل «الأدب» الدعاء(٧) • ويقول « الرافعى » تقلبت هذه اللفظة على ثلاثة أدوار لغوية تتبع ثلاث حالات من أحوال التاريخ الاجتماعى فهى لم تكن معروفة فى الجاهلية وصدر الاسلام الا بما يؤخذ من معناها النفسى الذى ينطوى فيه وزن الأخلاق ، وتقويم الطباع ، والمناسبة بين أجزاء النفس فى استوائها على الجملة ، وكل ما هو من هذا الباب ومنه الحديث الشريف « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ولعل ذلك كان توسعا منهم فى أصل مدلول الكلمة ، الطبعى على ما هو معروف من أمرهم فى اشتقاق اللغة وانتزاع بعضها من بعض فانهم يقولون : أدب القوم يأدبهم أدبا ، اذا دعاهم الى طعام يتخذه ، والقوم أهل بادية مقفرة يتأكفيها الشمس حتى ظلها،وتشرب نسيمها وطلها،ولذلكتمدحوا من أقدم أزمنتهم بالقرى ، وعدوه من أعظم مفاخرهم لأنه شريعة الطبيعة التى أدبتهم هذا الأدب(٨) ثم لما جاء الاسلام ، ووضعت أصول الآداب ، واجتمعوا على أن الدين أخلاق يتخلق بها فشت الكلمة حتى اذا نشأت طبقة المعلمين لعهد الدولة الأموية أطلق على بعض هؤلاء لفظ المؤدبين، وكان هذا الاطلاق توسعا ثانيا فى مدلول « الأدب » لأنه اكتسب معنى علميا اذ صار أثرا من آثار التعليم •

ثم استعاضت الكلمة وكانت مادة التعليم ادبى قائمة بالرواية من الخير والنسب والشعر واللغة ونحوها فأطلقت على كل ذلك ونزلت منزلة الحقائق العرفية بالاصلاح وهذا هو الدور الثالث فى تاريخها اللغوى ، وهو أصل الدلالة التاريخية(٩) •

---

(٧) تاج العروس للفيروزابى جـ ١ ص ١٤٤ مادة « أدب » •

(٨) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٣١ نشر دار الكتاب العربى ـ لبنان •

(٩) ذاته ص ٣٢ •

هذا من الناحية اللغوية ، والآن لابد بعد الوقوف على المعنى اللغوى للفظة « الأدب » من تتبع النصوص شعرية ، كانت أم نثرية لتوضيح مفهوم ذلك اللفظ عبر الأعصر المختلفة ففى العصر الجاهلى نرى كلمة « الأدب » عنى بها السنة والطريقة يتضح لنا ذلك من قول الشاعر « سهل بن حنظلة الغنوى » •

قد يعلم الناس أنى من خيارهم أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا

فالمراد باللفظة هنا ، السيرة والسنة والطريقة ، وواضح أن اللفظ لم يكن معروفا فى الجاهلية بمعناه الفنى ، والمعروف لدينا فى ذلك العصر ، فليس بين أيدينا نص جاهلى شعرا كان أو نثرا يدل عليه ، وانما نجد اسم الفاعل من كلمة « أدب » « آداب » بمعنى الداعى الى الطعام أو صانع المأدبة ، وقد وردت فى بيت « طرفة بن العبد البكرى » :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

وقد اشتقت من كلمة « آدب » بمعنى الداعى الى الطعام « مأدبة » وهى الطعام الذى يدعى اليه الناس ليأكلوا •

أما فى عصر صدر الاسلام فلم يكن ذلك اللفظ معروفا حيث ان القرآن الكريم ، وهو قمة الاعجاز البلاغى واللغوى وقد نزل بلغتهم، ومع ذلك لا نجد فيه آية تومىء الى هذا اللفظ وهو « أدب » وانما فسر اللفظ حسبما يدل عليه من معانى التناول • والدليل على ذلك ما ورد فى الحديث • من أن وفود العرب وفدت على رسول الله ﷺ من مختلف نواحى الجزيرة العربية فكان ﷺ يسمع منهم ، ويخاطبهم بلغتهم ، فدهش لذلك الامام « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، وقال : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم الوفود بما لا نعلم أكثره فرد عليه الرسول عليه السلام بكلمته الشهيرة « أدبنى

ربى فأحسن تأديبى » ، بيد أنى من قريش وربيت فى بنى سعد(١٠) فكأن الصلة بينها وبين مادتها • أن الأدب يدعو صاحبه الى الصفات الحميدة ، وأصل معنى هذه المادة « الأدب » الدعوة الى الشىء•وقد ورد هذا اللفظ بذلك المفهوم فى قول امرأة من بنى هزان فى ابن لها عصاها وعفها(١١) فقالت :

أنشأ يمزق أثوابى يؤدبنى أبعد شيبى عندى يبقى الأدبا(١٢)

وفى الكامل للمبرد :

أنشأ يخـرق أثوابى ويضربنى أبعد ستين عندى تبتغى الأدبا(*)

ومنه قول بعض الغزاريين :

أكنيـه حـين أناديه لأكرمـه ولا ألقبـه والسوأة اللقبـا
كذلك أدبت حتى صـار من خلقى أنى وجدت ملاك الشيمة الأدبا(١٣)

---

(١٠) محاضرات فى الأدب والبلاغة لأستاذنا الدكتور حسن الظواهرى يرحمه الله • بتصرف •

(١١) هى : ثواب بنت عبد الله الحنظلية الهمدانية شـاعرة ماجنة ظريفة محسنة كانت تسكن همذان • راجع نزهة الجلسـاء فى أشـعار النساء للسيوطى « مخطوط » وأعلام النساء لعمر رضا كحالة جـ ١ص١٨٥ وما بعدها ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م وأيضا ـ شاعرات العرب جمع وتحقيق الأسـتاذ عبد البديع صـقر ـ منشورات المكتب الاسلامى ص ٤٠ ـ الأولى سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م وفيه « أم ثواب الهزانية » •

(١٢) ديوان الحماسة لأبى تمام جـ ٢ ، ص ١٢٤ ط بولاق •

(★) الكامل للمبرد طبع أوربة بلاغات النساء لطيفور ، والحماسة لأبى تمام جـ ٢ ص ١٣٤ طبع بولاق •

(١٣) تاريخ آداب اللغـة العربيـة لجورجى زيدان جـ ١ ص ٣٦ تعليق د• شوقى ضيف ط دار الهلال ١٩٥٧ م •

ويروى لنا صاحب العقد الفريد فى حديثه عن وفود العرب لدى كسرى أن علقمة بن علاثة العامرى ، وهو خطيب وفد النعمان بن المنذر ملك الحيرة الى كسرى أنو شروان وكان قد أعجب بهم وبحسن تأتيهم للكلام ، وتخلصهم فى المواقف الحرجة ببيانهم الساحر ، فقال علمقة ابن علاثة :

« أنهجت لك سبل الرشـــاد ، وخضعت لك رقـــاب العباد ، ان للأقاويل مناهج ، وللآراء موالج ، وللعويص نمارج ، وخير القـــول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجحه ، انا وان كانت المحبة أحضرتنا،والوفادة قربتنا فليس من حضرك منا بأفضل ممن عـــزب عنك بل لو قست كل رجل منهم ، وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له فى آبائه دينا انداد ، وأكفاء ، كلهم الى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصـــوف ، وبالرأى الفاضل ، والأدب النـــافذ معروف ، يحمى حمـــاه ، ويروى نداماه ، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يتحرز منه جاره ، أيهـــا الملك ، من يبل العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب ، فانها الجبال الرواسى عزا ، والبحور الزواخر طميا ، والنجـــوم الزواهر شرفا ، والحصى عددا ، فان تعرف لهم فضلهم يعـــزوك ، وان تستصرخهم لا يخذلوك(١٤) ، وجاء فى كتاب النعمان الى كسرى « وقد أوفـــدت أيها الملك رهطا من العرب ، لهم فضل أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، وليغمض عن جفاء ان ظهـــر من منطقهم ، وليكرمنى باكرامهم ، وتعجيل سراحهم ، وقد نسبتهم فى أسفل كتابى هذا الى عشائرهم(١٥) .

---

(١٤) راجع العقد الفريد لابن عبد ربه جـ ٢ ص ١٥ ، ١٦ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سـنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م . شرح الأســاتذة : احمد امين وأحمد الزين والابيارى .

(١٥) ذاته ص ١١ .

=

فنرى كلمة « أدب » هنا تحمل معنى رفعة القدر وعلو الشأن والظرف وحسن التناول ، وذلك فى قـول علقمة « كلهم الى الفضـل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضـل والأدب معروف » .

وكذلك فى قول النعمان : وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل فى أحسابهم ، وعقولهم ، وآدابهم .

وجاء فى حديث أبى على القالى عن عتبة بن ربيعة وابنته هنـد وكانت شرطت على أبيها أن يصف لها من يتقـدم لخطبتها دون ذكر اسمه ، فقال لها ذات يوم : انه قد خطبك رجلان من قومك ، ولست مسميا لك واحدا منهما حتى أصفه لك .

أما الأول : ففى الشرف الصميم والحسب الكريم ، تخلبين به هوجا من غفلته ، وذلك اسجاح من شيمته ، حسن الصـحابة سريع الاجابة ، ان تابعته تبعك ، وان ملت كان معك ، تقضين عليه فى ماله وتكتفين برأيك عن مشورته . وأما الآخـر : ففى الحسب الحسيب والرأى الأريب ، بدر أرومته ، وعز عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، ان اتبعوه أسهل بهم ، وان جانبوه توعر عليهم ، شديد الغيرة سريع الطرة ، صعب حجاب القبة ، ان حاج فقير منزور ، وان توزع فقـير مقهور ، وقد بينت لك كليهما فقلت : أما الأول فسيد مضياع لكريمته موات لها فيما عسى أن تعتص أن تلين ، وتضيع تحت خبائها ، ان جاءته بواد أحمقت ، وأن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت ، اطو ذكر هذا عنى ، ولا تسمه لى :

أنهجت : وضحت ــ موالج : مداخل ــ نداماه : ندماؤه الواحد نديم ، طميا تقول : طمى البحر طميا : يعنى امتلأ وعلا .

وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة ، انى لأخلاق هذا لوامقة ، وانى له لموافقة ، وانى لآخذه بأدب البعل ، مع لزوم قعبتى ، وقلة تلفتى ، وان السليل بينى وبينه الحرى أن يكون المدافع عن حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبتها ، المحامى عن حقيقتها المثبت لأرومتها ، غير مواكل ولا زميل عند صعصعة الحروب ، قال : ذاك ، أبو سفيان بن حرب، قالت فزوجه ولا تلق القاء السلس ، ولا تسمه سوم الضرس ثم استخر الله فى السماء يخره لك فى الفضاء(١٦) ، فترى الكلمة هنا وهى « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » جاءت بمعنى التشذيب والتهذيب والخلق الحميد والأمر ذاته يصدق على عصر الخلفاء الراشدين ، فليس بين أيدينا من النصوص ما يؤكد أن هذه اللفظة وما تنتظمه من مدلولات كانت شائعة معروفة فى جزيرة العرب فى تلك الحقبة الزمنية من تاريخهم .

ومر الزمن والكلمة لا تخرج عن هذا المعنى حتى كان عصر بنى أمية ، وظهرت آثار الفتوحات الاسلامية على الحياة الاجتماعية،فنقلت كتب الأدب أن الخلفاء يرونهم الشعر والأخبار ، ويعلمونهم اللغة والدين وكانوا يسمونهم المؤدبين .

فالباحث فى هذه المادة يلحظ أنها اكتسبت معنى التعليم فى حدود مفهومه الاصطلاحى ، وكذلك الاخبار بشىء ما وبخاصة بعد اتخاذ الخلفاء المؤدبين لأولادهم وبذلك أصبح المؤدب ، المخبر بأمر ما ، وقد ورد ذلك واضحا فى قول « مقاتل بين مسعود العبدى » .

---

(١٦) راجع الأمالى لأبى على القالى ـ المجلد الأول ص ١١٧ وما بعدها طبع الهيئة الاسجاع : السهولة ، والزمل ، والزمال : والزميل والزميل الجبان الضعيف ـ الصعصعة : الاضطراب يقال تصعصع القوم فى الحرب اذا اضطربوا ، وتصعصعوا ـ تفرقوا ، والضرس : السىء الخلق .

عرفت الليالى بؤسها ونعيمها وحنكنى صرف الزمان وأدبا (١٧)

والمعنى : جعلنى ذا خبرة بالأمور ، وكذلك قول : أبى عطاء أفلح ابن يسار السندى « وهو من شعراء الدولة الأموية :

اذا أرسلت فى أمر رسولا
فأفهمه وأرسله أديبا
وان ضيعت ذاك فلا تلمه
على أن لم يكن علم الغيوبا (١٨)

وحكى عن « عمر بن عبد العزيز » أنه قال لمؤدبه حين جاءه يبايعه بالخلافة : « كيف كانت طاعتى اياك وأنت تؤدبنى » ؟ فقال : «أحسن طاعة » قال عمر بن عبد العزيز : فأطعنى الآن كما كنت أطيعك(١٩) .

من ذلك نرى أن كلمة « أدب » قد أضيف الى مفهومها تعلم الشعر ، والأخبار والتبصير بأصول السنن وتأويل القرآن الكريم ، وتولد منها بهذا المعنى « مؤدب ، وتأديب » أما فى صدر العصر العباسى فقد انتظم الأدب المعنيين « التهذيبى والتعليمى » وقد سمى : « عبد الله بن المقفع » كتابيه « الأدب الكبير والأدب الصغير » لهذا المعنى ، وهما يحويان العديد من النصائح والحكم الخلقية ، والأدبية والسياسية .

---

(١٧) حماسة البحترى ص ١٥٤ ط بولاق .

(١٨) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ط ص ٢٧ تعليق د. شوقى ضيف ط دار الهلال ١٩٥٧م .

(١٩) محاضرات فى الأدب والبلاغة لأستاذنا الدكتور حسن الظواهرى

(*) ابن المقفع : كاتب من كتاب العصرين : الأموى والعباسى وهو فارسى الجنسية ، له كتب كثيرة مترجمة الى العربية ومنها « كليلة ودمنة» والأدب الكبير والأدب الصغير .

كما يتضح ذلك أيضا فى حماسة (أبى تمام) ، والتى تحوى العديد من المختارات وطوائف الشعر ، كما أنها تدعو الى الخلق الحميد من حياء وعفة ونأى عن المنكر والفحشاء ، مع حسن المعاملة للناس كما أنه أطلق على الجزء الثالث من حماسته « باب الأدب » كما أننا نرى البخارى يطلق على باب من أبواب صحيحه ، « كتاب الأدب » وفى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجريين نرى أن مفهوم كلمة « أدب » اتسع وذلك نتيجة للنمو الطبيعى للغة العربية وما طرأ على حيوات العرب من تمدن ورقى وحضارة ، وتغير وتجديد ، وتقلب فى أحوالهم وسياستهم ، وهذا الأمر جاء تبعا لاتساع ممالكهم وامتداد نفوذهم وسلطانهم على أمم ذوات أديان مختلفة ، ولغات متباينة وعادات مغايرة .

ولاريب فى أن هذا التجديد ، وتلك التغيرات أسهمت فى اظهار كلمة (الأدب) فى ثوب جديد وهو : معالجة قضايا الشعر ، وما يتصل به من أنساب وأيام وأخبار ، وقد تجلى ذلك فى كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ المتوفى فى سنة (٢٥٥هـ) وهذا الكتاب قد حوى العديد من النوادر والأشعار والأخبار مع بعض الاتجاهات البلاغية والنقدية،كما ألف غيره كتبا بهذا المعنى من أمثال : المبرد المتوفى فى سنة ٢٨٥هـ ، فقد ألف كتابه « الكامل فى اللغة والأدب » ونرى المبرد يذكر فى مقدمة كتابه الغرض من تأليفه لهذا الكتاب على نحو يساعدنا على تحديد مفهوم كلمة « أدب » كما أنه قدم كثرة كاثرة من الرسائل النثرية الأدبية ذات القيمة العالية .

ثم يطلع القرن الثالث فنجد (ابن سلام الجمحى) يطالعنا بكتابه : « طبقات فحول الشعراء » و « ابن قتيبة الدينورى » المتوفى سنة ٢٧٦هـ يطلع علينا أيضا بكتابه « الشعر والشعراء » ثم يأت القرن الخامس فنرى كتاب « زهر الآداب » للحصرى المتوفى فى سنة ٤٥٣هـ .

ولم تقف كلمة (أدب) عند هذا المعنى بل اتسعت لتنتظم كل المعارف الدينية والثقافية والاجتماعية وغيرها من الأمور الدنيوية ، واستمر هذا المعنى الى ما يلى منتصف القرن الرابع حسبما يستنتج من رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء • وقد ورد فيها ما نصه : « واعلم يا أخى بأن العلوم التى يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس » فمنها الرياضة ومنها الشرعية والوضعية ومنها الفلسفية الحقيقية فالرياضة هى علم الآداب التى وضع أكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا وهى تسعة أنواع ، أولها علم الكتابة والقراءة ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله ومنها السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ومنها علم الحرف والصنائع ومنها علم البيع والشرى والتجارات أو الحرث والنسل ومنها علم السير والأخبار (٢٠) •

وقد ظهرت مؤلفات القرن الثالث والرابع الهجريين تؤكد أن الأدب فى مفهومه عبارة عن : الملح واللطائف والنكت والأمثال والنوادر والأبيات الرقيقة والتواريخ وذكر الشىء بالشىء بالاستطراد أو بالمناسبة مع مراعاة مقتضى الحال ، وأن الأديب من يأخذ من كل شىء أحسنه فيألفه • قال الشاعر :

أرى العلم نورا والتأدب حلية
فخذ منهما فى رغبة بنصيب
وليس يتم العلم فى الناس للفتى
اذا لم يكن فى علمه بأديب(٢١)

---

(٢٠) راجع آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ص ٣٣ وما بعدها دار الهلال سنة ١٩٥٧ م ،مراجعة وتعليق د• شوقى ضيف ، ورسائل اخوان الصفا وخلان الوفا •

(٢١) ذاته ص ٣٩ وما بعدها •

ثم اتسع مفهوم الأدب لينتظم كل المعارف غير الدينية التى ترقى بمدارك الانسان فى جانبيه الاجتماعى والثقافى شعرا كان أم نثرا الى جانب علوم اللغة والأنساب والأخبار وأيام الناس والنـاظر فى رأى ابن خلدون لكلمة (الأدب) يراه رأيا وتعريفا جامعا حيث يقـول : « الأدب هو حفظ أشـعار العرب وأخبـارهم والأخذ من كل عـلم بطرف »(٢٢) •

بيد أن هذا التعريف ما لبث أن انحصر فى صناعة الشعر والانشاء البليغ وبعد أن كان لفظ الأديب يطلق على جماعة (المؤدبين والشعراء) الذين يحترفون تعليم الشعر والأخبار لأبناء الخلفاء ، انحسر أيضـا واختص به الشعراء دون غيرهم ، ويعزى تشعب كلمة (أدب) من أصل معناها الى معان مغايرة الى ما طرأ على حيوات المجتمع العربى من أطوار •

ونجد المستشرق كارل نالينو يذهب الى أن كلمة (الأدب) مشتقة من (الدأب) وجمعت على (أدآب) ثم قلبت فقيل (آداب) ثم شاع اللفظ واستعمل بمعنى العادة(٢٣) • ونحن لا نجد مبررا لهذا الرأى الذى ذكـره المستشرق كارل نالينو سوى أنه ومن على شـاكلته من الاستشراق وأهله اعتادوا قلب الحقائق والتشكيك فى كل ما هو عربى أو اسلامى ، فهم قد مرنوا على ابدال الحقائق قبل ابدال الكلمات ، فليس هناك داع لأن يقول ان الكلمة أصلها (الدأب) أو هى مشتقة منه ، وفصلت على (أدآب) حيث ان كلمة « دب » أيسر على اللسان وجارية عليه أكثر من كلمة (دأب) فليس هناك قلب فى الكلمة وانما هناك لوى ذراع الحقيقة من المستشرق كارل نالينو •

---

(٢٢) العصر الجاهلى ، ص ١٠ ، ومقدمة ابن خلدون ، ص ٥٥٣ •

(٢٣) انظر من روائع الأدب العربى للدكتورة وفاء على سليم نشر وكالة المطبوعات بالكويت ، ط الثانية سنة ١٩٨٢م ، بتصرف•

بعد هذا العرض الموجز لكلمة (أدب) ومفهومها قديما نقول متسائلين اذن ما المفهوم العصرى لكلمة (الأدب) ؟ وما الخصائص التى فرضت تلك التسمية ؟

وللاجابة على هذه التساؤلات نقول : الواقع أن هذه الكلمة ظلت تدل على الثقافة حتى جاء القرن الماضى فأصبحت على معنيين : معنى عام ، ومعنى خاص أما المعنى العام فيشمل كل ما ينتجه العقل الشعور والوجدان سواء كان أدبا أو علما أو ثقافة أو فلسفة .

وأما المعنى الخاص : فهو الأدب الخالص الذى يعبر عنه الأديب عن معنى من المعانى أو تجربة من التجارب بأسلوب مؤثر جميل(٢٤)، ويقول الأستاذ عبد العزيز عبد المجيد تحت عنوان « مفهوم الأدب » الأدب له معنيان : معنى عام ، وآخر خاص والمعنى العام للأدب يعنى النتاج الفكرى العام للأمة ، فأدب أمة معينة يعنى كل ما أنتجه أبناء هذه الأمة فى شتى ضروب العلم والمعرفة سواء كان ذلك فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والطب والتاريخ والعلوم والرياضيات أو غير ذلك من نواحى المعرفة الانسانية أما بمعناه الخاص ، فهو الفكرة الجميلة فى العبارة الجميلة(٢٥) . والأدب بهذا المعنى لون من ألوان التعبير الفنى الخلاق عن الأفكار والمعانى والمشكلات أو هو مجموع الآثار النثرية والشعرية المتميزة بجمال الشكل أو الصياغة والمعبرة عن أفكار ذات قيمة باقية ، والأدب بهذا المعنى الخاص من الفنون الجميلة التى تبعث فى النفس متعة وسرورا ؛ كالقصيدة الرائعة والمقالة البارعة، والقصة المؤثرة .

---

(٢٤) راجع من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى للدكتور سعد ظلام ، ص ٢٩.

(٢٥) اللغة العربية ـ أصولها النفسية وطرق تدريسها . للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد الطبعة الرابعة ـ دار المعارف بالقاهرة ص ٢٨٨ .

فليس المراد به مجرد التعبير عن معنى من المعانى بل يراد به النتاج الأدبى من كلام منثور أو منظوم فى أسلوب يؤثر فى عواطف السامعين أو القارئين وذلك على نحو ما هو معروف فى فنون الشعر ، وفنون النثر مثل القصص والمسرحيات والأمثال والخطابة والمقامة والمناظرات مع ما ألف بفصيح العبارة وبلاغة الاسلوب من التاريخ ووصف الأسفار(٢٦) • ونرى الأب لويس شيخو يؤكد ذلك المعنى بقوله : « تحيا الأمم بآدابها ، لأن الآداب ترقى بالمرء فوق الحياة المادية ، وتسمو به الى المدارك الشريفة وتقربه الى عالم الأرواح ، والى الجمال الذى منه يستغير كل مخلوق جماله ، وعليه فان أراد العاقل أن يعرف درجة التمدن التى بلغها شعب من الشعوب ، بحث عن انتشار الأدب بين أهله ، ولذلك نرى المؤرخين يقدمون فى تاريخهم تاريخ الآداب على تاريخ الوقائع ، وربما أفردو للآداب تاريخا قائما بذاته يثبت ما يختص بالعلوم والمعارف فى كل ملة مخبرا عن نشأة الآداب بينها ، واتساع نطاقها وأسباب ترقيها ، ونتائجها الطيبة فى اصلاح القوم وتحسين أخلاقهم(٢٧) هذه المحاولة فى فهم ماهية الأدب أسهمت فى ادخال عنصر جديد للبحث هو عنصر (المتعة الفنية) التى يحققها الأدب للسامع أو القارىء ، كما أسهمت فى ايضاح ما طرأ عليه من تغيرات مختلفة ارتبطت بالدين الاسلامى ، وما لازمه من انفتاح على العالم الخارجى • فقد كانت مهمة النقد قديما عملية تابعة للابداع الفنى ، أما فى هذا العصر فقد تجاوز اللفظ هذه القيود ليبشر بعوالم تجرعها الناقد ويدعو المبدع الى اقتحامها وهذه العوالم

---

(٢٦) راجع من روائع الأدب العربى للدكتورة وفاء على سليم ص ١٧ ط الكويت •

(٢٧) راجع تاريخ الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ج ١ ط ١ ـ بيروت سنة ١٩١٠م للأب لويس شيخو عوض •

أو الابتكارات لابد وأن تكون أجمل مما هو مشاهده وبذلك فتح منافذ وآفاق جديدة أمام الأدباء ، ولا تقف بالأدب في مرحلة • تقضى بجمود الأدب وترهله •

وستختلف اللغة اليومية عن لغة التعبير الأدبى ، فاللغة اليومية ذات هداف نفعية دائما ، مرادها الوصول الى نتيجة محددة ، وعملية، وليست لها مرآة جمالية ، ومع اختلاف مستويات اللغة اليومية نظرا لطبيعة المتحدث بها في ثقافته وطبقته وعصره ، فانها تظل ملأى بالثغرات من خلال غياب التركيب المنطقى فى علاقاتها وتغيير القرائن والدلالات، وهنا يبقى التعبير الأدبى متميزا عن اللغة العلمية ، واللغة اليومية ، ذلك بأنه لا يظل حبيس الدلالات المباشرة وانما يعنى بالايحاء،مخالفا الاستعمال المعجمي المحدد الذى تحرص عليه اللغة العلمية ، تتخلله الاشارات التاريخية ، والذكريات والتداعيات حريصا على الرمز الصوتى الذى يجسم مشهدا أو حدثا ، سواء كان ذلك فى صورة الوزن الشعرى ، أو الايقاع بصفة عامة ، أو اختيار الكلمات التى تعبر عن حالة نفسية معينة • وأهم ما يميز العمل الأدبى هو نشاط المخيلة الذى يعين الأديب على اختراع وقائع ومشاهد لا تستند الى واقع محدد أو تعبر عنه بصورة مباشرة • وربما كان ذلك كافيا لتميز أعمال أدبية بعينها لعب فيها الخيال دورا واضحا مثل (اليوتوبيا) ، أو الدينة الفاضلة ، أو قصص ومسرحيات المغامرة التى تظهر فيها العرافات والشياطين والعالم الآخر • وما الي ذلك • وهنا يبرز سؤال هو في حاجة الى جواب وهو ما الرأى فى الأعمال التى يختلط فيها الفكر بالخيال؟ مثل جمهورية « أفلاطون » ؟ وما الرأى أيضا فى الحواريات الفلسفية التى تكتب بأسلوب جميل رائع ، ومع هذا تظل فى نطاق الفلسفة ولا تعد من الأدب ؟ والجواب على ذلك هو أن هناك وسيلة تعتمد على الشكل الفنى ، والقصيدة ، والقصة ، والمسرحية ، وغير ذلك من

الأشكال الفنية المتميزة ولكل شكل مجموعة من الخصائص الفنيـة ، أو الأسس الجمالية التى يجب أن تتوافر له ، وهذه الأسس تهـدف الى ايقاظ قدرة التأمل فى القارىء ، وارواء الاحساس بالجمال فيه ، ذلك الاحساس الفطرى الكامن الذى يحتاج الى من يوقظه بقدرته على تشكيل المادة الفنية بصورة جذابة ومقنعة ، فلا تقدم الفكرة مجردة ، أو بصورة مباشرة ، وانما يلوح بها ، أو يرمز لها من خلال المشهد ، والحركة ، والصورة ، والتأمل ، وما الى ذلك من وسائل التشـويق • وان القدرة على تشكيل المادة الفنية ، أو الموضوع ، من أهم الأمور التى تميز الأديب عن غيره ، وهذه المقدرة ترتكز على موهبة التخيـل والابداع ، وتتوسل الى ذلك باستعمال اللغة على النحو الذى أومأنا اليه آنفا • يعنى اسـتعمالا فنيا مقنعا ، وقـادرا على ايقاظ حماسة القارىء للمتابعة ، وتحريك خياله للمشاركة بالتأمل وارضاء النزوع الى الجمال فيه •

فالعمل الفنى لا يتفوق بموضوعه فحسب ، مع أهمية الموضوع فى الفن ، وانما يتميز ويتفوق بجمالياته الخاصة النابعة من تركيبه الفنى•

فقد يصور الأديب موضوعا عاديا أو شائعا ، مثل الدعـوة الى الاصلاح الاجتماعى ، أو مهاجمة الطبقية ، أو ضرورة الاحتكام الى الشرعية القانونية ، ونبذ الاعتماد على القوة ، وطرح هذه القضـايا بصورة مباشرة ، ومعـالجتها بصورة علمية منطقية ترصد الأسـباب والحجج والنتائج ، لا تجعل من كاتبها أديبا ولا تجعلها فى الأدب•أما حين تطرح هذه القضـايا نفسها من خلال « الصـفة » و « الأيدى الناعمة » و « السلطان الحائر » فانها تصبح من أدب المسرح ويستحق كاتبها توفيق الحكيم لقب «الأديب» وهكذا اذا ظهرت فى شكل روائى، أو قصصى ، أو فى قصيدة شـعرية وان ظل الشـعر الغنائى يمثـل

اهتمامات خاصة به وهى : النفس الانسانية الفردية ، وان كان هذا لا يعنى انحصاره فيها .

وهكذا نرى أنه ليس من اليسر وضع تعريف أو حد للأدب ويمكن أن يقال بصفة اجمالية : انه التعبير عن تجربة انسانية بلغة تصويرية هدفها التأثير،وفى شكل فنى جمالى قادر على توصيل تلك التجربة(٢٨). وهكذا يتضح لنا أنه من العسير وضع اطار محدد أو تعريف جامع للأدب ولكن يمكن القول بصفة عامة : انه التعبير عن تجربة انسانية بلغة تصويرية هدفها التأثير وفى شكل فنى جمالى قادر على توصيل تلك التجربة(٢٩) .

ومن خلال هذه المحاولة يبرز لنا الأدب فى قسمين رئيسيين : هما : الشعر ، النثر ، واذا تتبعنا كلا منهما بالدراسة والبحث نبدأ بسؤال أنفسنا : لم ينتج الشاعر فنه القولى فى صورة شعرية ولا يخرجه فى قالب نثرى ؟ والواقع أن الأديب حين يكتب شعرا يكون فى حالة نفسية ، ووضع يكون فيه التعبير الشعرى هو التعبير الوحيد الكافى، فالشعر قبل كل شىء يعتمد على ما عند الشاعر من بصيرة شعرية(٣٠) والحقيقة أن الشعر والنثر يشتركان فى احتواء كل منهما عناصر تنتظم الفكرة والخيال والعاطفة ، وان الفارق بينهما يكون بمقدار التفاوت

---

(٢٨) مقدمة فى النقد الأدبى د. محمد حسن عبد الله ـ دار البحوث العلمية ص ٢٧ ـ ٢٨ ط الأولى ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

(٢٩) مقدمة فى النقد الأدبى للدكتور محمد حسن عبد الله ط دار البحوث العلمية بالكويت سنة ١٩٧٥م ص ٢٨ .

(٣٠) راجع الأدب وفنونه ـ د. عز الدين اسماعيل ط دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٧٦م ط السادسة ص ١٢٨ .

والتباين فى هذه العناصر ، ومع أن الكلام المرسل العـادى أقدم من المنظوم الا أن الشعر يعد ابتداء للآداب لدى أية أمة من الأمم،وما ذلك الا لأنه ــ أى الشعر ــ نبع الخيال والعاطفة بينما الكلام المنثور يجىء تعبيرا عن الفكر والرأى •

ولاريب فى أن المجتمعات بأسرها تتقدم فيها العواطف والأخيلـة على الرأى والفكر ، حيث أن النضج الفكرى يحتاج الى قدر من الرقى والتمدن والسير قدما فى ركب الحضارة ، والأمة العربية كغـيرها من الأمم ، فلقد كان الشعر لديها أسبق من النثر ، وهذا مما لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان •

وتقسيم الأدب الى شعر ونثر يتدرج تحته العديد من الألوان ، والأقسام ، فليس الشعر لونا واحدا ، وليس الكلام المنثـور ضربا واحدا ، كذلك ، بل لكل منهما ألوانه المتعددة ، وضروبه المتباينة ، كما أن لكل منهما ميزاته ومجاله ووظيفته •

أ.د. على أحمد عبد الهادى الخطيب
الأستاذ المساعد للأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط